قِرَاءَةٌ فِي حِجَاجِ الْجَاحِظِ عَنِ الْكِتَاب

سالم محمد عيبلو – جامعة مصراتة – ليبيا s.aiblu@art.misuratau.edu.ly

مُلَّخصُ:

قال ابن الأثير في كتابه المثل السائر: مدار البلاغة كلها على استدراج الخصم إلى الاذعان والتسليم؛ لأنه [لا] انتفاع بإيراد الألفاظ المليحة الرائقة ولا المعاني اللطيفة الدّقيقة دون أن تكون مُستَجلَبة لبلوغ غرض المخاطب بها.

فالحجاج والحالة هذه ظاهرة لغوية؛ وإن كنّا في حياتنا اليومية نمارسه بعفوية، ونلجأ إليه بفطرة حين نحاول إقناع الآخرين باتخاذ قرار أو صرفهم عن اختيار، فإن معرفة طرقه ووسائله تساعد على انجاز الأغراض وتحقيق الأهداف، وفي هذا البحث سنعرض للطريقة التي استخدمها الجاحظ في الدفاع عن الكتاب، وسنقدم للموضوع بمقاربة تاريخيه نبين فيها شيئا من تاريخ الحجاج والوعي به كموضوع للدرس وبمقاربة أخرى لغوية نبين فيها معناه لغة والمصطلحات التي تدل عليه والفروق بينها، ثم نعالج نصاً الجاحظ جعله في مدح الكتاب ونوضح الوسائل التي استخدمها في حجاجه ليستدرج الخصم ليذعن ويسلم بفكرته عن أهمية الكتب وتأليفها.

Résumé :

L'argumentation a été définie de différents manières nous choisirons la définition adoptée par le professeur PIERER Oléron et elle est ainsi : (démarche par laquelle une personne – ou un groupe – entreprend d'amener un auditoire à adopter une position par le recours à des présentations ou assertion – arguments – qui visent à en montrer la validité ou le bien – fondé). L'ARGUMENTATION, p.4)

Dans notre article concernant l'argumentation nous avons utilisé plusieurs approches ; une approche historique avec laquelle nous montrons les étapes historique d'avoir consciences de ce phénomène linguistique. Nous avons utilisé également une autres approche linguistique ; avec laquelle nous traitons plusieurs termes utilisé au sein de ce phénomène de l'argument ; et nous avons dans cet article une partie d'application dans laquelle nous montrons comment un grand écrivain comme Al-Jahiz avait organisé ses arguments dans sa défense des livres et leurs compositions.

مقدمة

يلاحظ المتأمل في اللغة واستعمالاتها أن الحجاج وسيلة إقناعيه، يُمارس بشكل يومي وعفوي، يتم أحيانا بوعي تام وتحضير مسبق، وأحياناً بفطرة يدعو إليها موقف الخطاب وسياقاته لذلك نجده في الخطابات الرسمية، وبرامج الإذاعة والتلفزيون، وفي المقالات الصحفية والمقاطع الإشهارية، عند الخطباء في المحافل الدينية، وعند السياسيين، المصلحين الاجتماعيين... وكل واحد منّا، لاشك أنه وفي ظروف مختلفة وفي مواقف متعددة استخدم الحِجاج أداة، ووظفه وهو يدافع أو يمدح، يبرر موقفاً أو قراراً، أو ينتقد تصرفاً ويحذر من فكرة أو هو يوضح تبعات قول أو فداحة عمل... الخ.

فظهر والحالة هذه، أن الحجاج مهم في حياة كل منّا. هذا وإن كنّا في حياتنا اليومية قد نمارسه بعفوية ،ونلجأ إليه بفطرة حين نحاول إقناع الآخرين باتخاذ قرار أو صرفهم عنه، فإن معرفة طرقه ووسائله تساعد على انجاز الأغراض وتحقيق الأهداف، وفي هذا البحث سنعرض للطريقة التي استخدمها الجاحظ في الدفاع عن الكتاب، وسنقدم للموضوع بمقاربة تاريخيه نبين فيها شيئا من تاريخ الحجاج، وأخرى لغوية نبين فيها معناه لغة والمصطلحات التي تدل عليه والفروق بينها، ثم نعالج نص الجاحظ في مدح الكتاب ونوضح الوسائل التي استخدمها في حجاجه عن أهمية الكتب وتأليفها.

الحجاج لغة واصطلاحاً

عرف العرب الحجاج استخداما في مخاطباتهم، ومارسوه بفطرة في خصوماتهم وحواراتهم، ولكن الانتباه إليه كعلم والتأليف فيه كفرع مستقل من فروع المعرفة، احتاج إلى ظروف خاصة تدفع إليه، وإلى تفكير ينظم طرقه ويؤسس لقواعده، فما معنى الحجاج لغة؟ ومتى عُرف الحجاج علماً؟

عرف العرب الحجاج والجدل ممارسة فاستعملوهما في خطاباتهم ومحاوراتهم وأسموهما، وهما عندهما في الغالب بمعنى. ذكر ابن منظور في اللسان الجدل، فقال: (والجَدَل اللَّدَدُ في الخُصومة والقدرةُ عليها، وقد جادله مجادلة وجِدالاً،... ويقال جادَلْت الرجل فجَدَلته جَدْلاً أَي غلبته. ورجل جَدِل إذا كان أَقوى في الخِصام والإسم الجَدَل وهو شدَّة الخصومة وفي الحديث الشريف: "ما أُوتَي الجَدَل قومٌ إلاَّ ضَلُّوا"[1]. وذكر ابن منظور تعريف الجدل اصطلاحاً بقوله: (الجَدَل مقابلة الحجة بالحجة، والمجادلة المناظرة والمخاصمة)[2].

[1] لسان العرب المحيط / دار صادر بيروت، نسخة المكتبة الشاملة الإصدار الثالث، ج 11. ص 103

[2] لسان العرب، 103/11.

والجدل هكذا يكون في الخير، وقد يكون في الشر، ويكون المراد به في حديث الرسول السابق ذكره الجَدَل على الباطل، أما طَلَبُ المغالبة به لإظهار الحق فإن ذلك محمود لقوله عز وجل (وجادلهم بالتي هي أَحسن[3])، وقوله تعالى (ولا جِدال في الحج[4])، قال أبو إسحاق: (قالوا معناه لا ينبغي للرجل أن يجادل أخاه فيخرجه إلى ما لا ينبغي[5]). ومن جملة من ألّف فيه - وهم كثير في القديم، ويتزايدون في الحديث - علماء ينتمون إلى حقول علم مختلفة، ومنهم سليمان بن عبد القوي نجم الدين الطوفي الحنبلي المتوفى سنة (716هـ/1316م)، ألَّف كتاباً جاء في مقدمته:

(أما بعد فهذا كتاب ألفته في الجدل والمناظرة، بحسب ما اقتضته القريحة المستخرجة والقوة الناظرة، مقر فيه بالتقصير، معترفا بباع في العلم قصير، ومن شاء فليسمه {علم الجذل في علم الجدل} إذ كان لغرابة وضعه وطريقته يصلح أن يكون علما على انشراح صدر الناظر فيه وسعته)[6]. وقال: ورتبته على أبواب وخاتمة، وقد خصص - رحمه الله - المقدمة لمبحث لغوي اصطلاحي فبين اشتقاقه وحده، وبمنهج لا يخلو من الجدل، حاول الربط رغم تباعد المعاني بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي في كل أصل محتمل للفظة، ثم عرفه اصطلاحاً فقال: (قيل هو قانون صناعي يعرف به أحوال المباحث من الخطأ والصواب على وجه يدفع عن نفس الناظر والمناظر الشك والارتياب)[7].

أما أبواب الكتاب الخمسة فهي:

1- حكم الجدل شرعاً

2- آداب الجدل

3- أركان الجدل

4- أقسام الاستدلال وحصرها

5- استقراء ما في الكتاب العزيز من الوقائع الجدلية.

واعتبر المؤلف هذا الباب الأخير هو الهدف من وضع الكتاب، فقال: (ولأجل ذلك وضعت هذا الكتاب[8])، أما خاتمة الكتاب فذكر فيها جملة من الماجرايات[9]

---

[3] النحل، آية: 16.

[4] البقرة آية: 197.

[5] لسان العرب، 103/11

[6] أنظر علم الجذل في علم الجدل، نجم الدين الطوفي، تحقيق الباحث الألماني قولفهارت هاينريشس، دار النشر فرانز شتاينز بقيسبادن، تاريخ الطبعة 1407هـ 1987م، ص2.

[7] المصدر نفسه، ص3.

[8] المصدر نفسه، ص2.

[9] هكذا وردت هذه اللفظة في مقدمة الكتاب وفي خاتمته ولم أجدها في الكتب الأخرى، ويظهر لي أنها الماجريات ويعنى بها ما جرى بين الناس من خصومات ونزاعات.

الجدلية الواقعة في ماضي الزمان بين الناس. وذكر ابن خلدون المتوفى سنة (808هـ 1406م) الجدل في المقدمة حين أشار إلى علم أصول الفقه فقال:

(وأما الجدل وهو معرفة آداب المناظرة التي تجري بين أهل المذاهب الفقهية وغيرها، فإنه لمّا كان باب المناظرة في الرد والقبول متسعاً، وكل واحد من المتناظرين في الاستدلال والجواب يرسل عنانه في الاحتجاج. ومنه ما يكون صواباً ومنه ما يكون خطأً، فأحتاج الأئمة إلى أن يضعوا آداباً وأحكاماً يقف المتناظران عند حدودها في الرد والقبول، وكيف يكون حال المستدل والمجيب، وحيث يسوغ له أن يكون مستدلاً وكيف يكون مخصوصاً منقطعاً، ومحل اعتراضه أو معارضته وأين يجب عليه السكوت لخصمه الكلام والاستدلال)[10].

وأشار إلى أنه لا يختص بمجال دون أخر فقال بما يقرب من تعريفه بذكر خصائصه ولذلك قيل فيه: إنه معرفة بالقواعد، من الحدود والآداب، في الاستدلال، التي يتوصل بها إلى حفظ رأي أو هدمه، كان ذلك الرأي من الفقه أو غيره. كما أشار كذلك إلى بعض من أقسامه فقال: وهي طريقتان:

طريقة البزدوي[11] وهي خاصة بالأدلة الشرعية من النص والإجماع والاستدلال. وطريقة العميدي[12]، وهي عامة في كل دليل يستدل به من أي علم كان، وأكثره استدلالاً. وهو من المناحي الحسنة. والمغالطات في نفس الأمر كثيرة).

وأضاف ابن خلدون موضحاً بعض الفروق ومشيراً إلى بعض الطرق فقال: وإذا اعتبرنا النظر المنطقي، كان في الغالب أشبه بالقياس المغالطي السوفسطائي، إلا أن صور الأدلة والأقيسة فيه محفوظة مراعاة يتحرى فيها طرق الاستدلال كما ينبغي). ووضّح ابن خلدون أن ابن العميدي هو أول من كتب فيها، ونسبت الطريقة إليه، وضع الكتاب المسمى بالإرشاد مختصرا وتبعه من بعده من المتأخرين كالنسفي[13] وغيره، جاءوا على أثره وسلكوا مسلكه وكثرت في الطريقة التأليف. ولبيان حال العلم في وقته وزمن حياته قال ابن خلدون: (وهي لهذا العهد مهجورة لنقص العلم والتعليم في الأمصار الإسلامية، وهي مع ذلك كمالية وليست ضرورية والله سبحانه وتعالى أعلم، وبه التوفيق)[14].

---

[10] المقدمة، ص263.

[11] البزدوي توفي سنة 482 هـ/1089م، فقيه أصولي من أكابر الحنفية، له كتاب في أصول الفقه.

[12] العميدي محمد بن محمد ركن الدين السمرقندي، توفي سنة 615هـ 1218م، كان إماماً في فن الخلاف والجدل، ومن كتبه الوافي في الخلاف والجدل الأعلام، ج7، ص27.

ـ النسفي عبد العزيز بن عثمان توفى سنة 533هـ 1138م، فقيه حنفي ،كان من أعلام عصره في بخارى من كتبه

[13] المنقد من الزلل في مسائل الجدل. الأعلام ج 4 ص 22.

[14] المقدمة، ص 263.

وممن كَتب في الجدل في العصر الحديث الشيخ المفكر الإمام محمد أبو زهرة، فقد تناول الجدل على أساس تاريخي، وترتيب زمني، فذكر في كتابه الجدل وأشار إلى جانب العناية به ثم وضح الفرق بين كل من المناظرة والجدل والمكابرة، ثم ذكر الاختلاف ومنشأه، وذكر كذلك الجدالات في الجاهلية، وفي عصر النبوة، وجدل القرآن والجدل في عصر الخلفاء الراشدين وجدل الطوائف المختلفة من خوارج وشيعة وغيرهم في العصر الأموي ثم العباسي[15].

وجرى ذكر للجدل في تفسير العلامة ابن عاشور التحرير والتنوير فإذا به يقارن[16] معتمداً المدونة القرآنية بين الجدل والحجاج، فبين أن الجامع بينهما هو المخاصمة، وبين أن (حاجّ) لا يستخدم غالباً إلا في معنى المغالبة وأن الأغلب فيه أن يفيد الخصام بباطل وأن المجادلة هي: المخاصمة بالقول وإيراد الحجة عليه، تكون في الحق وفي الباطل، وضرب (يجادلنا في قوم لوط)[17]، (ولا جدال في الحج)[18] أمثلة لذلك.

وأشار المحقق عبد المجيد تركي في تحقيقه لكتاب المعونة في الجدل[19] للشيرازي، إلى أن الكتاب في أصول الفقه، وهو يعتمد حسب قوله طريقة النظر، وقال إن النظر لفظة جامعة تشمل ثلاثة أنواع إن كان في أصول الفقه سمي جدلاً، وإن كان في فروع الفقه سمي خلافات، وإن كان في شروط المناظرة وقواعدها لتجري على أصول سليمة وفي جو مناسب للمقام سمي: آداب البحث[20].

وأشار الباحث عبد الله صولة - رحمه الله - في كتابه القيّم الحجاج في القرآن أن الحجاج والجدل يكثر ورودهما مترادفين في اصطلاح القدماء، وكان قد استفاد بما وجدم من استخدامات للمصطلحين في كتابي الزركشي (ت 794هـ/1391م) والسيوطي (ت 911هـ/1505م) اللذين وضع كل واحد منهما كتاباً في علوم القرآن خصص فيه فصلاً للموضوع (الجدل) أسماه بـ جدل القرآن[21].

كما أشار الباحث نفسه أن أبا الوليد الباجي (تـ 474 هـ/1081م) قد أسمى كتابه الذي هو من علم أصول الفقه بسبيل المنهاج في ترتيب الحجاج، وقال: (إن الباجي كان ينعت كتابه في المقدمة بأنه كتاب في الجدل، وحدّه بأنه: تردد الكلام بين اثنين قُصدُ كل واحد منهما تصحيح قوله وإبطال قول صاحبه[22]).

---

15 انظر كتاب الجدل للإمام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي تاريخ النشر 1943.
16 التحرير والتنوير محمد الطاهر بن عاشور، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 2000، ج2، ص 505.
17 هود الآية 74.
18 البقرة الآية 197.
19 انظر كتاب الجدل ص 55.
20 كتاب المعونة في الجدل للشيرازي، حققه وقدم له ووضع فهارسه عبد المجيد تركي، الطبعة الاولى، 1988، دار الغرب الإسلامي، ص 60.
21 الحجاج في القرآن، منشورات كلية الآداب بمنوبة، تونس، طبعة 2011، ج:1، ص 17.
22 الحجاج في القرآن 16/1.

وأشار الأستاذ المرحوم عبد الله صولة إلى مصطلح المذهب الكلامي الذي كان يستعمله بعض الباحثين القدماء وكانوا يعرفونه تعريفاً يقتربون به كثيراً من مفهومي الجدل في المنطق وفي أصول الفقه[23]. فخلَص - رحمه الله - في بحثه إلى تقرير أن الحجاج والجدل والمذهب الكلامي مصطلحات متقاربة وتبدو مترادفة، وساق نصاً لابن القيم الجوزية (تـ751 هـ/1350م) يؤيد ما ذهب هو نفسه إليه [24].

وقد استمر استعمال استخدام الجدل والحجاج مترادفين حتى في الدراسات الحديثة، فالباحث الهادي حمو في كتابه مواقف الحجاج والجدل في القرآن الكريم كان قد استخدمهما بمعنى صراحة[25]. وجعله معظم الدارسين مرادفا للجدل، فخالفوا قليلاً أو كثيراً مفهومه الأرسطي الذي يجعله قاسما مشتركاً بين الجدل والخطابة، كما خالفوا أيضاً الحجاج بمفهومه الحديث الذي استوى فيه مبحثاً فلسفياً ولغوياً قائم الذات مستقلاً عن صناعة الجدل والخطابة يتشكل شيئاً فشيئاً. ومن هنا يظهر أن العرب عرفوا الحجاج واستخدموه بداهة وأدركه الباحثون منهم، وعرفوا الحجاج علماً، فكتبوا فيه الكتب وسجلوا في ميدانه الملاحظات. ولمزيد بيان تاريخ هذا العلم نتناول شيئاً من تاريخه عند الغربيين.

الجدل عند اليونان ومن ورث ثقافتهم وفلسفاتهم

قلنا قبل إن الجدل ظاهرة إنسانية، يمارسه الإنسان فطرياً حيث وجد الداعي للجدل، وتوفرت القدرة عليه، قال تعالى: (وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيءٍ جَدَلاً [26]). ونظرة سريعة في كتب هؤلاء المؤرخين لظاهرة الجدل حتى استوائه علما تبين أنه مر بمراحل واشتمل على أدوات كثيرة استخدمت في صلبه، وأنه لم يخل من المغالطات والمغالبة، خاصة عند السفسطائيين الذين تميزوا وتسلحوا بالكفاءة البلاغية والخبرة الجدلية، واهتموا أيضا بالكلمة والجملة وبحثوا في السبل الممكنة، التي بها التأثير العاطفي ومن تم الإقناع وتغييرمواقف الآخرين، وكان منهجهم يعتمد على الفخامة والجرس والمحسنات اللفظية واستخدام المجازات والاستعارات والتشبيهات، وكانت الفلسفة في نظرهم ضربا من الجدل والتلاعب اللفظي يساعد على القول الواحد ونقيضه، وصار الهدف عندهم من الجدل هو الجدل لذاته لا

[23] الحجاج في القرآن 16/1.
[24] الحجاج في القرآن 18/1.
[25] الحجاج في القرآن 19/1.
[26] سورة الكهف الاية 54.

لطلب الحق وإصابة اليقين، فهم لا يعلمون تلاميذهم البحث عن الحقيقة، بل يعلمونهم كيف ينتصرون على الخصوم حال النزاعات وقد اشتهرت عندهم مقاربات أربع نوردها بأسمائها الفرنسية ثم نترجمها ونعلق عليها.

المقاربات الأربع عند السفسطائيين

في مجال الحجاج يذكر الدارسون عدة مقاربات حجاجيّة يعدونها من مساهامات السفسطائيين وانجازاتهم، ومنها هذه المقاربات الأربع التي نضعها بأسمائها الفرنسية[27] ونحاول شرحها وترجمتها فيما نقدمه حولها من شروح:

1-L'antiphonie 2-paradoxe 3-le probable 4-la dialectique

أ. المنهج التضادي، أو لنقل المقاربة التضادية، أو المماحلة: فهي بمعنى المجادلة والمكايدة: وقد لهج بها السفسطائيون كثيراً واستخدموها بشكل منتظم، وعلى ضوء هذا المبدأ يصبح كل حجاج، وكل فكرة وجهة نظر محتملة، تمكنُ مخالفتها، أو رأياً يمكن القول بنقيضه وفق رأي آخر أو وجهة نظر أخرى مختلفة محتملة ووفق زاوية نظر معاكسة، يمكن أن تجد لها مبرراً يعزز وجودها ومتكلماً يدافع عنها. فمثلا حين يصيب الرياضي رامي الرمح إنسانا في ميدان الرماية، يري بعض الناس أن رامي الرمح مذنب ومخطئ لأنه لم ينتبه الانتباه التام، ولم يتأكد من خلو ميدان الرمي من المارة. ألم يكن عليه أن ينتبه؟ فيُعارض بأن المذنب هو الضحية، وهو المخطئ، الذي لم ينتبه لنفسه ولم يتبع الإرشادات ولم يلتزم بالقوانين. ويمكن أن نقيس ذلك في حادث سير خالف أحد السائقين أو أحد المارة فيه قاعدة من قواعد المرور، فسبب في حادث راح المخالف ضحيته، فمن يلزم بالتعويض يا ترى صاحب السيارة أم الضحية؟ فإن قيل من سيدفع التعويض والغرم هو الضحية، ستكون ردة الفعل الناس معارضة وقوية ، وتكون مدفوعة بدفقة عاطفية، حيث تراه النفس مجاوزة للحد، وشيئاً مبالغاً فيه، ولكنه مع هذا لا يخلو من منطق يؤيده ومحام قد يراه حقاً ويدافع عنه فيربح الحكم ويفوز في القضية يؤيده المنطق ويسانده القانون.

ب. المفارقات والعبارات المتناقضة، لهج باستعمالها السفسطائيون ُيوهمون بها، وهذا يرجعه بعض الدارسين إلى قصور اللغات وضعفها، واشتمالها على قدر كبير من الغموض وضبابية في الدلالة. وهذا الاستعمال الذي لهج به السفسطائيون، كان لاشك باعثاً على تفكير أعمق لمن يبحثون عن الحق والعدل، فكان هو السبب الأول

[27] *L'argumentation de Christine Plantin*, Paris, Seuil, 1996, p.5.

الذي دعا الفيلسوف أفلاطون لانتقاد طريقتهم، ودعا من بعده تلميذه أرسطو لتقنين قضاياه وطرق قياساته. ورأى المنطقيون في ضوء هذا الاستعمال أن بعض القضايا الموهمة هي التي تضلل وتنتج تناقضات سببها قصور اللغة، ويرون أن العلاقة التي قد تولد بين اثنين يجب أن يراعى فيها عدة روابط دون إهمال خصائص الأشياء. ونضرب لذلك مثلاً من أمثلتهم الضعيفة الساذجة، و التي لاحظ لها من القوة وما كان يجب أن تكون ولا تصدق، فلما حصلت منهم هي وأشباهها كانت باعثا على النقد والتفكير في غيرها مما يحفظ الحقوق، فهم يقولون بما يشبه القياس فيخلطون به ويُوهمون على الناس، مثلاً:

هذا الكلب لك، إنه كلبك.

هذا الكلب له أولاد، فهو أب.

هو أب وهو لك، فهو إذن أبوك.

ومن جملة مغالطاتهم، تلك المغالطات السفسطائية الكثيرة أغلوطة الكذّاب التي تنسب إلى أربليس أحد منتسبيهم، ومفادها أن الإنسان إذا كذب وقال إني كاذب فهل هو صادق أم كاذب، وإذا كان الجواب إنه صادق فكيف كذب إذن؟ وإذا كان الجواب إنه كاذب فماذا عن اعترافه بالكذب، وكيف يمكن أن يكون كاذباً وصادقاً في آن[28].

ج. المحتمل أو الممكن، مفهوم الاحتمال من المفاهيم التي حددت من قبل السفسطائيين، وهو يتماثل مع طرق التعامل المألوفة والمعهودة في مجتمع ما، ويسمح بتحديد صور نمطية تشبه القوانين التي لا تتخلف، ويسمح كذلك بتفكير علمي حول سلوك الأفراد في المجتمع، ولكن النتائج التي تراعي المحتمل الإنساني من جهة والمعرفة المتحصلة من جهة أخرى تؤدي إلى إنتاج نوع آخر(احتمال) أشار إليه وعرفه السفسطائيون ونضرب هذا المثل المتداول في كتب الحجاج، ففي صراع محتمل بين اثنين أو فرقتين من المحتمل أن يهجم القوي على الضعيف (احتمال من الدرجة الأولى). وعندما عرف الضعيف قوة الأول، ولأن الشكوك سوف تتركز وتحمل على القوي لقوته وأنه سوف يتحمل عبء الإثبات هجم الضعيف على القوي، فالضعيف هو الذي قام بالهجوم على القوي (احتمال من الدرجة الثانية). أو أن القوي علم بأن الضعيف رغم ضعفه، يعد للهجوم فهجم عليه، فهذا احتمال ثالث.

[31] انظر رسالة الماجستير تحت عنوان: الجدل في القرآن خصائصه ودلالته، إعداد الباحث يوسف عمر لعساكر، جامعة الجزائر، 2005/2004.

وقد لا تقف الاحتمالات عند حد، فالعقل البشري قادر على اختراع الاحتمالات، ولم يرتض هذا المنهج ولا هذه الطريقة أفلاطون ولا أرسطو ونقدها من بعدهما ابن حزم[29] في كتابه "التقريب لحد المنطق والمدخل إليه" فقال: (ومن السفسطة أيضاً تصحيح شيء آخر وبطلانه ببطلان شيء آخر بلا برهان يوجب إضافتهما، فذلك فاسد جدا [30])، وقال: (وليس يعجز أحد عن ربط شيء بشيء لا رابط بينهما بلسانه إذا استجاز القطع بما اشتهى[31]).

د. الجدل: وهو عند السفسطائيين تفاعل حجاجي، وتنظيم جدلي، اشتهر بكونه خطابيا عندهم، وهو لا يعتمد فقط على الحجج العقلية، بل على التأثير العاطفي، فهو إذن نوع من الحوار ممزوج بالحجج العقلية، ويسير وفق قانون دقيق ومنظم، وعادة ما يتم بين متعارضين يحضرهما جمع من الناس، ويكون الانطباع وردة الفعل هي الحكم في النقاش. وهو عادة ما يتكون من أسئلة وأجوبة تتابع، وهكذا نرى أن التفاعل اللغوي اعتبر وكأنه الحقيقة النهائية التي تلعبها العلاقات الاجتماعية. ومن وجهة نظر أفلاطونية كما سنرى بعدُ، إن الذنب والإثم الأخلاقي لهذا التفاعل الذي أشار إليه السفسطائيون كونه ليس في خدمة الحقيقة، بل هو مناظرة خطابية فيها يتم التركيز على رفض أحد الطرفين والانتصار لأحدهما.

هكذا لعب وجود السفسطائين، رغم كثرة ناقديهم دوراً كبيراً في تطوير البلاغة والحياة الفكرية في اليونان عامة، فكانوا يعقدون نقاشات فلسفية ذات منزع لغوي، لا يخلو من المغالطات التي كانت تميّز طريقتهم وحالتهم، فخالفهم المفكرون والعقلاء مثل سقراط الذي استفاد من قضاياهم العقلية، ولم يتبعهم في شكوكهم، فكان له منهج حجاجيّ جدليّ خاص يتكون من مرحلتين تدعى إحداهما بالتهكم والأخرى بالتوليد[32].

أفلاطون تلميذ سقراط تأثر هو الآخر بالجدل واعتبره الوسيلة الوحيدة للبحث في الفلسفة، وغير معنى الجدل المموه المشوه عند السفسطائيين إلى معنى الجدل المخلص الذي يولد الحقيقة، وهو عنده قسمان: جدل صاعد وجدل هابط[33]. وكان هذا الأستاذ إفلاطون أكثر عنفاً في مواجهتم، فانتقد منهجهم معتمداً معياري الحق والخير وكان مثالياً يرى أن الحق والخير هما أساسان لكل حجاج، وذهب أبعد من ذلك حين وصف نقاشهم بأنه غير مجد، وفقير وفارغ ، وعديم النفع، ووصفهم

[29] ابن حزم على بن أحمد الظاهري توفي سنة 456 هـ 1064م كان عالم الأندلس وأحد أئمة الإسلام في عصره.
[30] انظر التقريب لحد المنطق والمدخل إليه، تحقيق إحسان عباس 1990، دار الحياة، بيروت، ص 175.
[31] التقريب لحد المنطق ص 175.
[32] انظر الجدل في القرآن خصائصه ودلالته ص 38.
[33] انظر الجدل في القرآن خصائصه ودلالته ص 39.

بأنهم أدعياء في العلم والمعرفة وانتقد ما يقدمون، ووصف نتائجه بأنها نتائج ظنيه لا تتركز إلا على اللذة والشهوة، ورأى أن مفاهيمهم مضرة بالقيم والأخلاق والإيمان واليقين هذه القضايا الأربع التي احتلت مكانة كبيرة في البلاغة والفلسفة الأفلاطونيتين[34].

تلميذ أفلاطون أرسطو، وكان أفلاطون محباً له وهو الذي أطلق عليه لقب العقل لذكائه الخارق وكذلك لقب القرّاء لكثرة قراءته واطلاعه، كانت له مساهمات كبيرة في مجال الفلسفة كما ألف كتبا كثيرة، من بينها كتاب تناول الجدل وفيه بين القوانين التي تستقيم بها صناعة الجدل والذي هو عنده جزء من المنطق، ولقد عرف أرسطو الجدل على أنه استدلال بالنفي أو بالإيجاب في مسألة واحدة بالذات مع تحاشي الوقوع في التناقض والدفاع عن النتيجة السالبة أو الموجبة واعتبره طريقا للوصول إلى الحقيقة. أرسطو هذا كان يعد فيلسوفاً شاملاً وذلك لمساهماته في علوم الطبيعية والميتافيزيقا، والأخلاق والأدب وقد وضع المنطق الصوري الشكلي، وبحث كذلك كما قدمنا في الجدل والبرهان، ويرى الدارسون أن الجدل عنده يشكل مبحثاً فكرياً وسمة مميزة للفلاسفة والنخبة، ويعرفه بأنه علم الاستدلال المنطقي، وهو عنده يخالف البرهنة لأنه ينطلق من مقدمات مشهورة بينما تنطلق البرهنة من مقدمات صادقة وضرورية. وكان يرى أن الخطابة فرع من الجدل، وعلم الأخلاق كما يمكن أن يدعى بحق علم السياسة، وانتقد على السفسطائيين إنتاجهم للحجاج وآلياتهم التي يستخدمونها[35]، وقد كان أرسطو يؤسس فهمه للحجاج على منطلقات استدلالية لا تخلو من اعتبارات نفسية اجتماعية عامة وهذا ربما كان سبباً حقيقياً نتجت عنه شهرته الواسعة في دائرة العلوم الإنسانية عامة. وهدف أرسطو الذي نظر إلى الحجاج نظرة تكاملية شمولية تتفاعل مع مختلف حقول المعرفة في ذلك العصر هو تنقية الخطاب الحجاجيّ مما قد يشوه من تزييف للقول وتملق وركاكة. فرتب الكلام صوراً وأشكالاً وتوسع في البحوث المنطقية، وعيّن طرق التفكير الصحيح، ونظم منهج المجادلة وقواعدها، وانتقل الجدل عبر مراحل من جدل سفسطائي يعتمد الخلط إلى منهج ينظم الجدال ويقنن له.

الحجاج عند اللسانيين الغربيين[36]

درس مفهوم الحجاج حديثاً باحثون من مدارس بلجيكا و فرنسا، وقد درسوا المفهوم في مختلف حقول المعرفة، وما نتج عن هذه التناول للحجاج هو إعادة

[34] انظر الجدل في القرآن خصائصه ودلالته.
[35] المصدر السابق ص 13.
[36] Ducrot M. Meyer ; Tytecat ; Perleman et Anscombre.

النظر في البلاغة اليونانية القديمة وقراءتها قراءة جديدة، وذلك بتوظيف كل ما توصلت إليه الدراسات اللسانية المعاصرة، وتم تأصيل الحجاج كمبحث أساس في البلاغة المعاصرة على يد "بيرلمان" و"تيتيكاه) ثم مع "ميشيل مايير" وأخيراً مع اللغوي الفرنسي "ديكرو" الذي أقام قطيعة مع التقاليد البلاغية القديمة فتوسع ميدان البلاغة ليشمل كل أنواع الخطابات. والحق أن بيرلمان وصديقه تيتيكاه قد ركزا على صناعة الجدل والخطابة وجعلا الحجاج أمراً ثالثاً مفارقاً لهما ومتصلاً في آن. والحجاج يأخذ من الجدل: التمشي، والتأثير النفسي، الذي يقوده للتأثير في المتلقي وإذعانه فمجاله العقل والإدراك، حيث يتوسل المسلمات لإلزام الخصم، وإفحامه، والغاية من الحجاج هي إذعان العقول وتسليمها للمقول، والحجاج هكذا قد يكون إقناعياً أواقتناعياً[37]. أمّا مايير والذي كان يسعى لإقامة نظرية بلاغية أساسها فكرة التساؤل، فالحجاج عنده: جواب عن وجهة نظر يجاب بها عن سؤال مقدر يستنتجه المتلقي ضمنياً من خلال الجواب. فمنطلقه والحالة هذه لغوي، بلاغي، يتوازي مع خلفيته الفلسفية. والخطاب عنده: إفصاح بلاغي بواسطة الكلام، والكلام ليس إلا انعكاسا للفكر والعقل على حد تعبيره[38]، وهو يرى أن الخطابة بما فيها من حجاج وبلاغة يجب أن تكون في خدمة الفلسفة والخير لا خلاف ذلك. ويرى دكرو وزميله أوسكمبر [39] أن الحجاج كامن من حيث بنيته في اللغة، وهو أي: الحجاج في نظرهم يجعل الأقوال تتابع، وتترابط على نحو دقيق، وان المتكلم يجعل قولا ما حجة إذا أقنع بها المتلقي على نحو صريح أو ضمني. وأشار ديكرو إلى أن المتكلم قد يصرح بالنتيجة أو يخفيها ويستلزم على المتلقي إيجادها واستنتاجها من بنيتها اللغوية وحصر الحجاج في نطاق اللغة وهكذا صار الحجاج مع أوسكمبر وزميله ديكرو خاصة يعالج في إطار لساني محض أو يكاد[40].

جانب تطبيقي قراءة في مدح الكتاب للجاحظ

نحاول جادين وعلى عجالة في هذه القراءة معرفة التقنية الأسلوبية والوسائل البلاغية البيانية التي استخدمها الجاحظ في كتابته على العموم وفي نصه هذا الذي خصصه لمدح الكتاب على الخصوص. ومعلوم معروف أن الكتابات الأدبية الفنية تتبنى في العادة طريق حجاجي تحاول التأثير به من أجل جر المستمع أو القارئ إلى اعتماد فكرة المنشئ والإذعان لقول المتكلم وفكرته خطيباً كان أو كاتباً شاعراً أو سياسياً.

[37] المصدر السابق ص 14.
[38] المصدر السابق ص 20.
[39] المصدر السابق ص 36.
[40] المصدر السابق ص 33.

يتفق الدارسون للأدب العربي على أن الجاحظ معدود من أساطين الفصاحة وأرباب البيان، ممن لهم الخبرة العلمية والمقدرة الفنية الأدبية فهو من العلماء الأدباء الذين يعتبرون حجة سواء أكتبوا أم قالوا أم انتقدوا، لذلك تتميز كتابته في بابها حين كان في هذا المجال كالصيرفي الذي يصنع النقود ويعرف قيمتها. وقد حدث له الشهادة بالتفوق فلا نعرف من شكك في قدرته ولا انتقد في المجمل منهجه ولا طريقته. ويظن بعض الناقدين المعجبين به وربما المتعصبين له أنه قائل بالفطرة وعلى السجية وأنه خطيب بالطبع لا بالصنعة قادر على القول خطابة وعلى البيان بداهة. والحق وهذه حاله وهذه تجربته يصعب الاقتراب من قوله دراسة وتحليلاً، ويصعب القول عليه وله، كيف وقد أسر الناس وفتنهم بجميل أسلوبه ورائع عبارته فلا يرون في قوله غير البيان ولا في استطراداته غير الأغراض البلاغية والمحسنات البديعية؟ وربما دخل عليه مع ما وصف به من بداهة، وما اشتهر به من تلقائية صنعة تغذيها نظريات فكرية لا تشتغل بالتأثير العاطفي فحسب، بل تتعداه إلى التأثير العقلي المنطقي، وتوجه اختياراته للكلمات وطريقه نظمه الجمل وترتيب العبارات، وربما زرع كلماته ونثرها بقصد وقام بإدراجها وسط أحاديثه بنيّة لتؤدي وظيفة إيحائية أو تمنح النص بعدا أفسح وأعمق. ولما كان هو الأديب العالم الذي اشتغل بفن القول جلّ عمره وعرف طرق الإفصاح وأساليب البيان وطرق الجدال والحجاج وعاين طرق الفخر والمدح ومسالك الهجاء والمعارضات وعانى الكتابة بمختلف أنواعها، لا شك أن كتابته تأثرت بثقافته وهي تعرضها وعلمه غذي أدبه وهو لاشك وجّهَه، فلأجل هذا سنحاول معرفة التقنية التي يستخدمها والطريقة التي يتبعها في حجاجه مشيرين إلى ما تأثر به من أدبيات قولية ونظريات فلسفية ونترك الرأي للقارئ لصفه في طبقة ووضعه مع طائفة.

قال الجاحظ في مدح الكتاب[41]:

"ثم لم أرَكَ رضِيتَ بالطعن على كلِّ كتاب لي بعينه حتَّى تجاوزتَ ذلك إلى أَنْ عبت وضْعَ الكتبِ كيفما دارت بها الحالُ وكيفَ تصرفَتْ بها الوجوه وقد كنتُ أعجَب من عيبك البعضَ بلا علم حتَّى عِبتَ الكلَّ بلا علْم ثم تجاوزْت ذلك إلى التشنيع ثم تجاوزتَ ذلك إلى نصب الحربِ فعبتَ الكِتَابَ".

في القطعة السابقة يطرح الجاحظ القضية تامة في أول سطر فيتصور الجاحظ ناقدا يطعن على وضع الكتب وتأليفها. ولهذه الفكرة أصل نجده عند بعض الفقهاء

[41] انظر كتاب الحيوان ج ص 38.

المسلمين، فقد كان بعضهم يتحرج من وضع الكتب، يأنفون أو يخافون أن يكون لهم كتاب يضاهون به كتاب الله، يقول أحد الكتاب: "كان السلف الصالح يأنفون من التصنيف ويبتعدون عنه قدر الإمكان رغبة أن يبقى العلم في الصدور"، ويروى أن الإمام الشافعي كان لا يحب أن تنسب كتبه إليه[42]. كان رضي الله عنه يحب أن يكون ممثلاً لعلم ولكثيرين من العلماء الذين عرفهم والتقى بهم وتتلمذ عليهم[43]، ويروى أن الإمام أحمد بن حنبل وهو من معاصري الجاحظ والشافعي لا يرى وضع الكتب وينهى عن كتب كلامه ومسائله[44]، وهذا يعني أن التدوين ووضع الكتب خاصة كتب الرأي والأخبار والأدب قد كان يوجد من يعارضهما ويقف ضدهما رغم أهميتها التي تظهر لنا اليوم.

يظهر من النص أن الجاحظ يحاجج معاصراً له ينتقد كتاباً للجاحظ، وربما كان هذا الناقد للجاحظ أحد الفقهاء ينتقد تسامحه الذي اشتهر به في كتاباته بذكره بعض القصص والأخبار والمواقف الإنسانية التي يتحرج الناس الذين لا ترتفع فيما بينهم مئونة التحفظ في ذكرها أو إعادة قراءتها. ومعنى هذا أن الناقد لوضع الكتب يرى وربما لسبب أخلاقي أو ديني أو تعليمي أن أنواعاً من الكتب أهم من أخرى وأن بعضا من الكتب لا أهمية كبيرة لها، ولا يجب أن يهدر الوقت في تأليفها، يقلل من قيمتها وينقص من أهميتها، لأنها لا تتناول أمور الدين ولا مسائل الفقه مثلاً. وربما أن الناقد لوضع الكتب وتأليفها، كان يرى أن الملكات تضعف عندما تترك معاناة الحفظ وتعتمد الكتابة أداة لاستبقاء ما حسن وقعه وجمل معناه.

اتفقت الأفكار على جدوى الكتابة وأهميتها ولا ينازع في ذلك عاقل ولكن الجاحظ اختار معارضا محكا، و منهجا أطول وطريقاً أدبياً للانتصار للفكرة. وفي مطالعاتي على أثير الدين أبو حيان النحوي شيخ النحو في الديار المصرية في عصره مع أنه يعد من الحفاظ يروى عنه أنه كان كثيراً ما يستشهد بقول الشاعر علي بن إبراهيم البجلي النحوي[45]:

إن الذي يروي ولكنه ** يجهل ما يروي وما يكتب
كصخرة تنبع أمواهها ** تسقي الأراضي وهي لا تشرب[46]

---

[42] L'influence de la doctrine shafite sur Abu hayyan al-nahwi dans son commentaire al-Bahr almuhitep , 93 : 96.

[43] انظر ترجمة الأئمة الأربعة لأبي حمزة الشامي ص 363.

[44] انظر سير أعلام النبلاء للذهبي ج 11 ص 327.

[45] انظر ترجمته في بغية الوعاة ج 2. ص 141.

[46] نقل الأبيات السيوطي في بغية النحاة.

الجاحظ يعرض القضية متناسياً، معرضاً عن حجج الخصم، فلا يشير إلى أهمية الحفظ ليصل وبسرعة لإقناع المستقبل لفكرته من البدء فقال:
"ثم لم أرَكَ رضِيتَ بالطعن على كلِّ كتاب لي بعينه حتَّى تجاوزتَ ذلك إلى أَنْ عبت وضْعَ الكتبِ كيفما دارت بها الحالُ وكيفَ تصرفَتْ بها الوجوه وقد كنتُ أعجَب من عيبك البعضَ بلا علم حتَّى عِبتَ الكلَّ بلا علْم ثم تجاوزْت ذلك إلى التشنيع ثم تجاوزتَ ذلك إلى نصب الحربِ فعبتَ الكِتَابَ".

في النص السابق: إعراب "أرك" في سياقه مجزوم بحذف حرف العلة وكثيراً ما ينسى الطلاب في الكتابة إبقاء حرف العلة مع الجزم، واستخدم الجاحظ المجهول ليعين صاحبه، وهو وإن عينه بمعرفة وهو ضمير الخطاب يبقى نكرة بالنسبة للمستقبل غير معلوم الذات، وبهذا الاستخدام، ووفق هذه الطريقة، يسلب الجاحظ الخصم كل قيمة ولا يكون له في الحقيقة كبير اعتبار، وكأنه شيء لا إنسان، وهذا لاشك مراد للكاتب مقصود، يهدف من خلاله إلى تهميش خصمه، وكأنه يود أن يجعله نكرة غير معلوم الذات ولا الصفات.

"وضع الكتب" مفعول به مضاف إلى مفعوله وهو مصدر فيعطي هكذا دلالة أوسع ومثله: (زين للناس حب الشهوات)([47]) وقال الجاحظ الكتب ليفيد التعميم، وهكذا يسلب الخصم كل حجة، ويشنّع عليه فلا يشك أحد في أهمية بعضها.

"كيفما" اسم مبهم وهو في موضع نصب على الحال وعامل الحال الفعل التام بعدها، وفي الاستخدام نوع من التعميم واستقصاء للأحوال ولا يفوت على الجاحظ مثل هذا.

"عيبك البعض" البعض مفعول به للمصدر قبله ففيه ما في الاستخدام الأول وكنا قد أشرنا إليه بلا علم لا هنا نافية لا عمل لها. ونفي العلم فيه تعريض بالخصم، واستهزاء به، وهجوم عليه وهذا سبق التدليل على بطلان قوله وهكذا يجعل الجاحظ القارئ يأخذ موقفاً سلبياً من المعارض لتأليف الكتب ويكون هكذا القارئي في صف الجاحظ ومعه.

العطف بـ"ثم" يقتضي التأخير، ويرى الجاحظ في موضوع آخر أن كل قبيح في العين مؤلم وكل ما شنع في النفس فهو مؤذٍ. كأنه يصفه بالتريث وعدم الإصابة و"نصب الحرب" مجاز، ويعني أنه أعلنها - أي الحرب - حين مضى الخصم بعيداً في الدفاع عن فكرته معتقداً صحتها، وكما يبدو إن إعلان الحرب علامة على الإفلاس الفكري فإذا فقد الخصم القدرة على المحاجة مد يده إلى السلاح واستعان به يجابه به الفكر.

[47] سورة آل عمران الآية 14.

ويلحظ أن الجاحظ في النص كرر كلمة التجاوز ثلاث مرات، والتجاوز في لغة الدين ذنب غير محبوب تلزمه توبة واستغفار وفي لغة الناس فكرة مذمومة تستوجب الاعتدال. وجعل خصمه مجهولاً، طعّاناً، متجاوزاً، عائباً، جاهلاً، مشنعاً، ناصباً للحرب رايتها موقداً للحرب نارها، فأي صفات أشنع وأي مصادرة أكبر؟ وبدأ الجاحظ في وصف الكتاب بأسلوب مدح وبجملة مركبة متداخلة بين الاسمية والفعلية فقال: ونعم الذخر والعُقدة هو

فـ"نعم"هنا فعل جامد لإنشاء المدح و"الذخر" فاعل به و لفظ هو مبتدأ، خبره الجملة قبله. فلم هذا القلب؟ لاشك أنه غرض أسلوبي أقل ما يقال عنه أنه سيق للتأكيد، فالجملة اسمية ولو قال ونعم الذخر والعقدة الكتاب، لكان من المحتمل أن يكون الكتاب خبراً لمبتدأ محذوف تقدير هو وتكون جملة المدح فعلية. ويجب أن يلحظ المبتدئ: أن المبتدأ في هذا النوع من الأساليب يحذف في الغالب، وعليه جاءت باقي الأمثلة، وهذا الأسلوب ربما فُسّر بأن الجاحظ أراد أن يثبت معنى واستمراره، ومعروف عند علماء البلاغة أن الجملة الاسمية تفيد في الغالب الثبوت والفعلية التجدد والاستمرار ومن أنصف القول، وأمعن النظر لاحظ إن في قولهم نوع التقاء، فكل تجدد هو في واقعه استمرار. ومن أراد الزيادة في هذا الموضوع فلينظر كتب التفسير ويراجع متعلق البسملة على الرأيين المعتبرين ومن أحسن الكتب المؤلفة في هذا كتاب الشيخ العلامة الزمخشري[48]- عليه من الله سحائب الرحمة وشآبيب المغفرة - فقد طبق الرجل الشيخ أبو القاسم محمود في كتابه الكشاف نظرية النظم التي وضع لبناتها الجرجاني عبد القاهر[49]. وفي البحر المحيط لأبي حيان النحوي المتوفى سنة 745 هجرية إشارات لطيفة لا يعدم من يستطيع خوض كتابه تفسير البحر المحيط نفعها[50] وفي مفاتح الغيب[51] اعترافات جريئة ردت على روحانيين ومفسرين صوفيين بعض أقوالهم وفيه نقد لطريقتهم. وهذا باب مفتوح للباحثين إذا أرادوا تعميق السؤال والنظر في هذه الطريق المتشعبة والوسائل المقترحة في فهم الكلام ومعرفة ميزته أيا كان نوعه وقصده، قال الجاحظ:

"ونعم الجليس والعُدَّة ونعم النشرة والنزهة ونعم المشتغل والحرفة ونعم الأنيس لساعة الوحدة ونعم المعرفةُ ببلاد الغربة ونعم القرين والدخِيل ونعم الوزير والنزيل والكتاب وعاءٌ مُلِئَ علماً وَظَرْفٌ حُشِي ظَرْفاً وإناءٌ شُحِن مُزَاحاً وجِدّاً".

---

[48] الزمخشري محمود بن عمر من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والأدب توفي سنة 538 هجرية 1144 ميلادية.

[49] الجرجاني عبد القاهر صاحب كتاب الإعجاز ونظرية النظم، له كتب كثيرة توفي سنة 478 هجرية.

[50] انظر مبحث البسملة في تفسير البحر المحيط.

[51] انظر تفسيره مفاتح الغيب ومبحث البسملة.

يلاحظ القارئ خفة العبارة بالحذف،الواقع وجمالية الأسلوب بالسجع الخافت،وقد اشتهر الجاحظ في عصره وبعد عصره برشاقة أسلوبه، قالوا وهو من أنصار نظرية اللفظ؛ فهو يرى أن الحسن قائم في اللفظ لا في المعني، وهو يرى أن المعاني ملقاة في الطريق وهذا يعني أن الإنسان أيا كان يجد في نفسه المعاني، فهو بالطبع مفكر، وذو إحساس، وشعور، ولكن التعبير عن الأفكار يحتاج أدوات هي في نظره الألفاظ. ويبدو أن الجاحظ كان متأثرا بنوعية الثقافة الكلامية عند العرب إذ كان أكثرها شعراً يتحكم فيه الوزن فيشترط الإبداع ألفاظا ذات أوزان محددة وصفات خاصة، وما قاله وإن كان غير مجمع عليه فهو منطقي منهجي ولذلك وجد من يقول به في أمم مختلفة وعصور متباينة وفي عصرنا عرف بعضهم الأديب بأنه الإنسان القادر على التعبير عن التجربة[52]، وهذا ليس ببعيد عن مقترح الجاحظ رحمه الله تعالى رحمة واسعة. والحق أن الجاحظ لا يهمل أهمية المعنى في كتاباته. والكلمات التي استخدمها الجاحظ معروفة مستخدمة كلها والنزيل من ينزل ضيفاً، وأهل الكرم يسعدون بنزول الأضياف عندهم. و(نزيل) كلمة تستخدم في المريض، يستبقى في المستشفي للعلاج وتستخدم للسجين في سجنه أو زنزانته، وفي العربية الفصحى نجد أصلاً للاستخدامين، وفي الاستعمال نوع تجوز ففي العربية جاء في أساس البلاغة للزمخشري[53] ونزل به ضيف ونزل عليه، وهو نزيله، وهم نزلاؤه أي ضيفه، قال:

نزيل القوم أعظمهم حقوقاً ... وحقّ الله في حقٌّ النزيل

من المجاز: نزل به مكروه، وأصابته نازلة من نوازل الدهر (أسأل الله لكم السلام والعافية) ففي كل استخدام ملاحظة معتبرة وطريق معلوم، ولله ما أغرب اللغة وأعجب طريقتها. فالكتاب يشبه النزيل الضيف الجدير بأن يهتم به ويقام بواجبه .

وصفات الكتاب التي استخدمها الجاحظ حسية، فهو أي الكتاب: أنيس وجليس وهو نشرة وبستان ونزهة وهو دخيل ووزير ومعرفة في الغربة وقرين، وهو بهذا يشد الناس إلى الظاهر المعلوم لا إلى فلسفة عميقة روحانية مستورة، ويلحظ أيضاً التكرار في المعاني دون الألفاظ وهو تنويع لاستقصاء الصفات، وتبيان الحسنات التي قد تحفى للكتاب، ويلحظ أنه كان حريصاً على ذكر الشيء مع ضده وذلك ليعطي الكتاب صفة الكمال ونلحظ وضوحاً لهذه الفكرة في المقطع التالي إذ يستمر الجاحظ فيقول في وصف الكتاب مخاطباً من أنقص من قيمة الكتاب والكتابة:

---

[52] انظر الكتابة الفنية، ساسين عساف، دار جروس برس، لبنان، ص 7.

[53] أساس البلاغة ص 470.

"إنْ شئت كان أبيَنَ من سَحْبانٍ وائل[54] وإن شئت كان أعيا من باقِل[55] وإن شئتَ ضَحِكْتَ مِنْ نوادِرِهِ وإن شئتَ عَجِبتَ من غرائبِ فرائِده وإن شئتَ ألهتْك طرائفُه وإن شئتَ أشجَتْك مواعِظُه وَمَنْ لَكَ بِوَاعِظٍ مُلْهٍ وبزاجرٍ مُغرٍ وبناسكٍ فاتِك وبناطقٍ أخرسَ وببارِدٍ حارّ وفي البارد الحارِّ يقولُ الحسنُ بن هانئ:

قُلْ لزُهير إذا انتَحى وشدا ** أَقْلِيلْ أَوَ أَكْثِر فَأَنْتَ مِهْـذَارُ
سَخُنْتَ مِنْ شِدَّةِ البُرُودَةِ ح ** تَّى صِرْتَ عِنْدِي كَأَنَّكَ النارُ
لاَ يَعجَبِ السامعُون مِنْ صِفَتِي ** كذلك الثلجُ بـارِدٌ حـارُ

ومَنْ لكَ بطبيب أَعرابيّ وَمَنْ لَكَ برُوميٍّ هِنْدِيّ وبفارسي يُونَانيّ وبقَدِيمٍ مولَّد وبميِّتٍ ممتَّع وَمَنْ لَكَ بشيءٍ يَجْمَعُ لَكَ الأَوَّلَ والآخِر والناقص والوافر والخفيَّ والظاهر والشاهدَ والغائبَ".

يستخدم الجاحظ الأمثلة لبيان صحة كلامه ويستعرض قوته ويظهر معرفته بالطرائق والناس ليحظى بإعجابهم وبظفر بمناصرتهم، فجعل كلامه يؤخذ على أنه كلام عارف عالم مدعوم بالشواهد مشفوع بالأمثلة، فيدعم هكذا موقفه ويستهوي قارئه، فيضرب الجاحظ مثلاً برجلين أحدهما اشتهر ببيانه وببلاغة خطابه ولسانه يسمى "سحبان وائل" سار رمزاً للفصاحة والبيان والآخر واسمه "باقل" وكان عييا وفيه طيش وحمق يصعب عليه القول ويثقل عليه البيان، ولم يكن يحسن القول ولا يجيده فيستعين بالإشارة أيا كانت[56]، وفي هذه إشارة خفية تهدف إلى القول بأن الحكم على الكتاب أيا كان هو ذاتي فقد يراه إنسان تافها في بيانه، ركيكاً في تبيانه ويصفه آخر وهو هو بأنه بليغ رشيق الأسلوب حول العبارة، وفي إحدى رسائله أشار إلى بعض حساده وإعراضهم عن كتبه، ووصفهم لها بأنها غير ذات بال يدفعهم حسب قوله الحسد وحسب من يلطف استخدام المصطلح يستعملون مصطلح المعاصرة ويعدونها حجاباً. وقال إنه إذا كتب الكتاب وزيفه دون اسم كاتب أو نسبه لآخر أقدم منه استقبل بترحيب وقرأ بنهم، أو أنه أراد معنى آخر يشير من خلاله إلى اختلاف حجم ومنفعة الكتب، أو ليقول إن القارئ مع الكتاب له الخيار، فإن شاء قرأ وإن شاء أمسك.

استخدام الشخصيات هو نوع من المجاز، فمن شخص إلى صفة فالجاحظ مثلاً إذ يستخدم الأشخاص إنما يريد الصفات وهو يصف الكتاب فقد يكون الكتاب فصيحاً أو معقداً صعب الفهم معقد التراكيب، وهذا ملاحظ معروف في دنيا الناس،

[54] خطيب يضرب به المثل في البيان، توفي سنة 674 الأعلام ج 3 ص 39.
[55] باقل الأيادي، جاهلي يضرب به المثل، الاعلام ج2 ص 42.
[56] من خبره أنه اشترى ظبياً بأحد عشر درهماً فمر به يحمله على قوم فقالوا له: بكم اشتريت الظبي فمدّ يديه ودلع لسانه يريد بأصابعه العشرة وبلسانه درهماً فشرد الظبي حين مد يديه.

فقد ذكر أن محمد بن يزيد المبرد إذا أراد مريد أن يقرأ عليه كتاب سيبويه يقول له: هل ركبت البحر؟ تعظيما له واستصعاباً لما فيه[57]. ويبدو أن المتنبي استفاد من الفكرة حين دافع عن إنتاجه الشعري ضد ناقديه، فقال:

وَكَمْ مِنْ عَائبٍ قَوْلاً صَحِيحاً ** وَآفَتُهُ مِنَ الْفَهْمِ السَّقِيم[58]

وحين قال: وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ ** يَجِدْ مُرّاً بِهِ الْمَاءُ الزُّلَالُ[59]

الكتاب يكون صامتاً، فهو لايزعجك كبعض الرجال بتشدقه وغزارة منطقه، ولن يزعجك بصمته المطبق، فمع الكتاب أنت بالخيار، ثم عدد الجاحظ صفات أخرى، وعندما وصل إلى فكرة غامضة أو قدرها غامضة على أناس شرع يشرحها فاستعان بالحسن بن هانئ[60] مشيراً إلى أن الفكرة معلومة محسوس بها مشار إليها قبله، وهنا يثبت أن له أتباعا في قوله، مؤيدين له في فكرته، قد سار على طريقته أناس وأدباء وعلماء فهو مع الجماعة وفي صفهم ويجعل خصمه بغية إقصائه خارجاً عن الجماعة منفصلاً. ونلاحظ هنا أن الجاحظ عدل قاصدا من الكنية وهي مشهورة إلى الاسم حين ذكر الحسن بن هانئ ولم يقل أبو نواس نظرا لما لكنيته وشخصه لمن يعرفه من إيحاءات سلبية وذلك لشهرته بالمجون فلا يصلح أن يكون شاهداً. قوله: "من لك" جملة ابتدائية جاء المبتدأ فيها اسم استفهام فله على هذا الطبع الصدارة، ولا يجوز بحال أن يتقدم عليه الخبر فالجملة يجب أن تحتفظ بترتيبها الطبيعي وقد ورد كثيراً في شعر العرب "ومن لي..." والجار والمجرور بعد من (لي) متعلق بمحذوف نقدره كالنحويين كائن، وقد نوع الجاحظ وذكر الشيء مع ضده يستعرض قدرته ويؤكد فكرته. ثم شرع الجاحظ يصف ميزات الكتاب فقال يسوق الكلام إلى سامعه خصماً مفارقاً أو صديقاً موافقاً وفيه بالاعتبار الثاني التفات، يقول الجاحظ:

"وبعد: فمتى رأيتَ بستاناً يُحمَل في رُدْن ورَوضةً تُقَلُّ في حِجْرٍ وناطقاً ينطِق عن الموتَى ويُترجمُ عن الأحياء وَمَنْ لك بمؤنس لا ينام إلاّ بنومِك ولا ينطق إلاّ بما تهوَى آمَنُ مِنَ الأرض وأكتمُ للسرِّ من صاحب السرِّ وأحفَظُ للوديعةِ من أرباب الوديعة".

"الردن" هو الثوب، وقد يكون من خز أو حرير، وشبه الجاحظ الكتاب بالبستان لم يجمع بينهما في المتعة وهو على هذا استعارة، ونلخص طريقة إجرائها على الطريقة المجملة: (شبه، تناس، وادع تم استعر).

---

[57] انظر أخبار النحويين ج1، ص، 7.

[58] انظر شرح ديوان المتنبي للواحدي ج1 ص 113.

[59] نفس المصدر ج1 ص 171.

[60] الحسن بن هانئ هو ابو نواس الشاعر، توفي سنة 198 هجرية 814 ميلادية.

الحجر بكسر الحاء معروف وهو وسط الثوب يثنى فتحمل فيه الأشياء، وشرع يصف الكتاب بما هو معهود معروف فيه ،ولكنه يضيء جوانب معتمة ويستكشف زوايا خبيئة، فيدل على أن الجاحظ فاهم لموضوعه مدرك لكل ابعاده فيسلم له القول ويؤخذ برأيه لا برأي خصمه. ولذلك، يستطرد الجاحظ فيخرج إلى موضوع آخر فيعرض فيه إلى الملكات وطبيعتها وإلى طريقة اكتساب الخبرات والمعين عليها، وسنرى في الأسطر رأيه ونكشف عن طريقته، وهو هنا يحاول أن يبين فضل المكتوب على المسموع، وربما قصد إلى الإشارة لندرة الحفاظ وضيق الفترة التي يكون الحفظ فيها متاحا ممكنا، وهذا التنويع هو منهج الأدباء في عصره والعرب قبل وقته فهم يخرجون من موضوع إلى آخر، ثم يعودون إلى الذي بدؤوا به، هدفهم رفع السأم عن القارئ، والحق يقال إن قراءة فاحصة تشعر أنه ابتعد عن موضوعه قليلا ولو فعلها باحث اليوم لقيل له هلا قسمت وجعلت الموضوع اثنين والبحث قسمين.

فيلحظ هنا أن الجاحظ يكاد ينسي خصمه، والغرض الذي ساق إليه قصده، وهو نوع إعراض وكأن الخصم ضعيف، أوهنه بما تقدم وأوجعه بما سلف، فلم لا يتركه يلتقط أنفاسه ويسترجع قوته؟ وكأنه يُعرض عنه ويتركه مظهرا قوته عليه كما تفعل الوحوش بفرائسها حين تتأكد من سيطرتها عليها فتروح تلعب بها وتعرض عنها لتعود لها وتتركها لتأخذها وتتجاهلها ثم تأكلها. وتجدر الإشارة إلى أن كتابة الجاحظ تمت بعد عصر تدوين العلوم فهل بقي في عصره من يحارب فكرة التدوين؟ وهو في وصفه الكتاب أشار واصفاً أنه:

(آمن وأحفَظ لما استُحْفِظَ من الآدميِّين ومن الأعْرَابِ المعربين بل مِنَ الصِّبيانِ قبلَ اعتراضِ الاشتغال ومن العُميانِ قبلَ التمتُّع بتمييز الأشخاص حينَ العنايةُ تامَّةٌ لم تنقص والأذهانُ فارغةٌ لم تنقَسِم والإرادَةُ وافرةٌ لم تتشعَّب والطِّينَةُ ليِّنة فهي أقبلُ ما تكون للطبائع والقضيبُ رطبٌ فهو أقربُ ما يكون من العُلوق حينَ هذه الخصالُ لم يَخْلُق جديدُها ولم يُوهَنْ غَرْبُهَا ولم تتفرَّق قُواها وكانت كما قال الشاعر:

أتانِي هواها قبل أَنْ أَعرِفَ الهَوى ** فصادف قلباً خالياً فتمكّنا

وقال عَبْدة بن الطَّبِيب[61]:

لا تأمَنوا قوماً يَشِبُّ صبيُّهم ** بَيْنَ القوابِلِ بالعَدَاوةِ يُنْشَعُ

ومن كلامهم : التعلُّمُ في الصِّغَر كالنقشِ في الحجر، وقد قال جِرَانُ العَودِ:

تُركْنَ برجلة الروحاء حتَّى ** تنكّرتِ الديارُ على البَصيرِ

كَوَحْيٍ في الحِجارةِ أو وُشُومٍ ** بأَيْدِي الرُّومِ بَاقِيَةِ النَّؤُور

[61] عبدة بن الطيب شاعر مخضرم هو من رثى قيس بن عاصم المنقري.

وقوله أيضاً:

وإنّ مَن أدَّبته في الصِّبَى ** كالعُـود يُسْقَى الماءَ في غَرْسِهِ
حَتَّى تُرَاهُ مُورِقاً ناضِراً ** بعــدَ الذي قد كــان في يُبْـسِـهِ

وقال آخر: يُقَوِّمُ مِنْ مَيلِ الغُلامِ المؤدِّبُ ** ولا يَنْفَعُ التأديبُ والرأسُ أشيَبُ

وقال آخر: وَتَلُومُ عِرْسَكَ بَعْدَ ما هَرِمَتْ ** وَمِـنَ العَــنَاءِ رِياضَــةُ الهَرِمِ

هذا القسم يعالج قضية واحدة وهي قابلية التعلم وتحققه، فالجاحظ من أنصار فكرة أن التعلم في الصغر أسهل وهو أحسن وأنجع، والجاحظ هنا يظهر كباحث اجتماعي وخبير تربوي فالكتاب الذي يدور الكلام عليه سيتركه الجاحظ قليلاً ليعود إليه، وإن كان الكلام مسوقاً للاحتجاج له وبيان أهميته فقال: الكتاب أحسن ذكراً من الصبيان قبل اعتراض الاشتغال ولا شك في أنه يقصد الاشتغال بالدنيا، فمن ينذر نفسه للعلم فلا يتخذ صاحبة ولا ولداً يكون حظه أوفر ومشاركته فيه أوسع من الذي سكن إلى النساء ورأى الزينة في كثرة الأبناء. ثم ذكر العميان وقوة ذاكرتهم بل لاحظ أيضاً أن غياب البصر جعل الذاكرة أكثر حفظاً والعقل أكثر انتباهاً لأن البصير لا ينشغل بالمحسوسات ولا تشتت فكره المرئيات فهو في الغالب أصفى خاطراً وأقوى على التذكر وأسرع من كثير من المبصرين.

أقول ومن أجل توضيح الفكرة نقول إن المسائل العقلية الكبرى التي تحتاج انتباهاً كبيراً لا يمكن في العادة أن تتم بين مجموعة بل يجب على الطالب الباحث أن ينفرد بنفسه ويقصي كل ما قد يشغله مما هو حوله فينظر بقلبه ويستعين بفكره ويراجع عقله ويستنجد في الجملة فهمه ليصل فيها إلى حل مقبول وعلى نتيجة مرضية. وهذا له أصل وعليه دليل، فقد رويَ عن الشافعي - رضي الله عنه - أنه كان يحب التفكير في الظلام، وسئل عن ذلك، فأجاب بأن الظلمة أجلى للقلب[62]. ففكرة إقصاء الموجودات من حولك للتفرد بالنفس لا أحد يشك تقريبا في فائدتها في الطلب ولا في كونها ضرورية للحياة. وهي عادة معروفة عند بعض الصوفيين يذكرون الله في الكهوف المظلمة والسراديب يظنون أن ذلك يقرب من الفتح([63]). ثم أطال الجاحظ حول المسالة فذكر لها أمثلة كثيرة حسية وأخرى عقلية وساق أقوال آخرين، يعرض أكثر من رأي في المسألة، فأوضح قائلاً: إن تعليم الصغير نافع وممكن وإنه من المعاناة رياضة الهرم، وحاصل معناه إن الكبير في السن يكون في العادة قد جرب الأمور فيكتفي بتجربته، ولا يحب أن يخوض فيما لا يعرف، فيؤثر الركون إلى معرفته وإلى ما أعتاده على الذي لا يعرفه، وربما فيه

[62] انظر كتاب حلية الأولياء لأبي نعيم الاصبهاني، ج 9 ص 104.
[63] انظر كتاب عوارف المعارف للسهراوردي، دار الكتب العلمية، 1992.

إشارة إلى أن بعض الأفكار ونظرا لتعنت أصحابها ووقوفهم عند ما يعرفون يصعب تبديلها وتغييرها ولو إلى أحسن منها، وكأنه يرمي صاحبه بالتعنت وعدم التعقل بوقوفه على ما عرف وانتصاره لما ألف، وكما يلاحظ عليه هنا أنه استخدم كثيراً عبارة أفعل. ثم يعود الجاحظ لينبه إلى أهمية موضوع الكتابة والكتاب فقال مستخدما آراء آخرين كوسيلة داعمة للفكرة التي لها ينادي وعليها يحاجج فقال:

"وقد قالَ ذو الرُّمَّةِ[64] لعيسى بن عمر[65]: اكتبْ شِعري فالكتابُ أحبُّ إليَّ من الحفظ لأنّ الأعرابيَّ ينسى الكلمةَ وقد سهر في طلبها ليلَته فيضَعُ في موضعها كلمةً في وزنها ثم يُنشِدها الناسَ والكتاب لا يَنْسَى ولا يُبدِّلُ كلاماً بكلام".

ويبدو أن الجاحظ يكتب من ذاكرته، فاستخدم المثل والعبارة والقصة أدواتا. وهذا القصة التي ذكرها تبين أن العرب في منهجهم يعتمدون المعنى ويعتبرونه أكثر من اللفظ، فهم قد يستعملون كلمة مكان أخرى، ولا يتغير المعنى، فالعبرة عندهم بالنية والقصد لا بالألفاظ، ونظراً لأن معظم قولهم شعر، فقد احتاجوا لحفظ الوزن والنغم تسامحاً في الألفاظ فلا مشاحنة فيها إذا فهم المعنى، ولهذا أولى علماء الأصول ودارسو المعاني والمقاصد اهتماماً كبيراً، ألا ترى أنهم أفسدوا البيع وقت نداء الصلاة بقوله تعالى (وَذَرُوا الْبَيْعَ) مع أن المقصود إيجاب السعي لا بيان فساد البيع، وتلك دلالة بالمعنى التبعي[66]. واستطرد الجاحظ فذكر أن صاحبه عاب الكتاب وذمه، وفضله الجاحظ فقال:

"وعبتَ الكتابَ ولا أعلَمُ جاراً أبرَّ ولا خَليطاً أنصفَ ولا رفيقاً أطوعَ ولا معلِّماً أخضعَ ولا صاحباً أظهرَ كفايةً ولا أقلَّ جِنَايَةً ولا أقلَّ إمْلالاً وإبراماً ولا أحفَلَ أخلاقاً ولا أقلَّ خِلافاً وإجراماً ولا أقلَّ غِيبةً ولا أبعدَ من عَضِيهة ولا أكثرَ أعجوبةً وتصرُّفاً ولا أقلّ تصلُّفاً وتكلُّفاً ولا أبعَدَ مِن مِراءٍ ولا أتْرَك لشَغَب ولا أزهَدَ في جدالٍ ولا أكفَّ عن قتالٍ من كتاب، ولا أعلَمُ قريناً أحسنَ موَافاةً ولا أعجَل مكافأة ولا أحضَرَ مَعُونةً ولا أخفَّ مؤونة ولا شجرةً أطولَ عمراً ولا أجمعَ أمراً ولا أطيَبَ ثمرةً ولا أقرَبَ مُجتَنى ولا أسرَعَ إدراكاً ولا أوجَدَ في كلّ إبَّانٍ من كتاب".

وفي الذي سرد إشارات لطيفة ودرس يستفاد فذكر صفات مستحبة وأخرى مذمومة، ولا يمثل الكتاب فيها إلا ما كان محبوبا مقبولا والصفة المرغوبة في الجار الذي شبه به الكتاب هي أن يكون باراً، والخليط منصفاً، والرفيق مذعناً مطواعاً ومن صفة المعلم المحبوب لتلاميذه التواضع. والواو عاطفة ولا زائدة

[64] ذو الرمة شاعر واسمه غيلان بن قيس، توفي سنة 117 هجرية 735 ميلادية. الاعلام ج 5، ص 124.
[65] عيسى بن عمر إمام من أئمة اللغة شيخ الخليل وسيبويه، توفي سنة 149 هجرية 799 ميلادية.
[71] انظر كتاب الموافقات للشاطبي إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي، ج2 ص 156، الطبعة الأولى، 1997.

لتأكيد النفي و"أعلم" هو الفعل العامل النصب في المفعول وما عطف عليه وما جاء منصوباً بعد أفعل التفضيل فهو منصوب على التمييز. و"العضيهة" هي البهتان والكذب، وكأنه قصدها إذ تبدو غريبة وعدم معرفة معناها لا يضر ففي لفظها من التنافر والثقل ما يوحي بفظاعة دلالتها وشناعة مبناها ما يغني عن معرفة معناها ومن هنا نستطيع القول إن اختيار الألفاظ مقصود ولا استبعد أنه كان - رحمه الله - يوازن بين الكلمات ويختار ما يوحي بدلالات ويسهم بإشارات ولا مقصد إلا محاولة التأثير على المستقبل وضمه إلى صفه.

"ولا أعلَمُ نِتاجاً في حَدَاثةِ سنِّه وقُرْب ميلادِه ورُخْص ثمنه وإمكانِ وُجوده يجمَعُ من التدابيرِ العجيبَة والعلومِ الغريبة ومن آثارِ العقولِ الصحيحة ومحمودِ الأذهانِ اللطيفة ومِنَ الحِكَم الرفيعة والمذاهب القويمة والتجارِبِ الحكيمة ومِنَ الإخبارِ عن القرون الماضية والبلادِ المتنازِحة والأمثالِ السائرة والأمم البائدة ما يجمَعُ لك الكتابُ قال اللّه عزّ وجلّ لنبيّه عليه الصلاة والسلام (اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ) فَوَصَفَ نَفْسَهُ تبارك وتعالى بأنْ علَّمَ بالقَلم كما وصف نفسَه بالكرَم واعتدَّ بذلك في نِعَمه العِظام وفي أيادِيه الجِسام وقد قالوا: القَلَمُ أحدُ اللسانَين وقالوا: كلُّ مَنْ عَرَف النِّعمةَ في بَيان اللسانِ كان بفضل النعمة في بيان القلم أعرف، ثم جعل هذا الأمر قرآنا، ثم جعله في أول التنزيل ومستفتح به".

في هذا المقطع نلاحظ أن الجاحظ يعزز موقفه، فالقرآن يشهد له، وكذلك أمثال العرب، والتجربة الإنسانية، وهو بهذا يفحم الخصم ويقصيه فمن يستطيع أن يعارض معاني الكتاب أو يشكك في التجارب الإنسانية أو في الأمثلة العربية.

أهم الخصائص الأسلوبية للحجاج المستخدم عند الجاحظ في دفاعه عن الكتاب

لاحظ الجمل والاستخدامات:

- تخير الألفاظ والأساليب واستعمال المؤثرات الصوتية والموسيقية.
- التأكيد وهو كثير ويتم بإعادة المعنى وبعض الألفاظ.

"رضِيتَ بالطعن على كلِّ كتاب - تجاوزتَ ذلك إلى أَنْ عبت وضْعَ الكتبِ - فعبت الكتاب- عيبك البعضَ بلا علم حتَّى عِبتَ الكلَّ بلا علْم -
إلى التشنيع- إلى نصب الحرب -
دارت بها الحال
تصرفت بها الوجوه
نعمه العظام - أيديه الجسام
فعبت الكتاب اللام فيه للجنس فهو يشمل الكتب كلها وفيه من التشنيع ما فيه".

- استخدام النكرات وهي توسع الدلالة أيا كانت مع الكاتب أو ضد الخصم.
- الإعراض بالالتفات.
- استخدام السجع.
- العدول من التعبير العادي إلى المجازات والإكثار من الشواهد والشخصيات.
- حذف بعض أجزاء الكلام.
- استخدم المثل والقصة والشعر أدواتا تساعده على بلوغ مراده.

من خلال ملاحظة الأسلوب المتبع في التعبير والنظام المتبع في إيراد الكلام نستنتج أن النتيجة التي يحاول أن يمليها الجاحظ على المتلقي تجعله ينتجها من خلال المعروض عليه، فالجاحظ يعطي المعطيات مضمنة بكلمات وجدانية وألفاظ عاطفية ذات بعد نفسي ويشرح موقفه سالباً خصمه كل حجة، وينزع من عليه كل دثار، وما على المستقبل إلا إعلان النتيجة منتصراً لها مقتنعاً بها.

الجاحظ في طريقته محاور يظهر أنه على علم بما يقول ويشاركه في رأيه كثيرون يستعين بذكرهم يعطون قوله قوة ويضفون عليه سلطة فيكون مقبولاً، ويعرض خبرته فينطلق في عوالم أوسع وأفسح ثم يعود إلى موضوعه، وهو في نصه لا يقتصر على الأساليب المعهودة ولكنه وكثيراً ما يتنحى عنها يستخدم لغة فنية تعتمد الإيحاء فقد اتهم صاحبه ومعارضه بأنه أسرف حين نبه قائلاً له: نصبت الحرب، وهو استعمال مجازي لا أعتقد أنه كتبت له الشهرة وكان جديراً أن يستعمل مجازاً، وفي اللغة العربية كثيراً ما يستخدم على حقيقته، وفي هذا العدول عن الحقيقة إلى المجاز، في قول الجاحظ إضافة زادت المعنى جمالاً وعلى الأثر أدبية، وقد كانت له أيضاً وظيفة حجاجية وهو يستغل عالم خطاب المتلقين وما يشتمل عليه من كفاءات منطقية وثقافية ونفسية ولغوية وبلاغية وغيرها ليسهل عليهم بناء الحجة بأنفسهم انطلاقاً من الكلام المعروض عليهم. فمقابلة خاطئ ظالم طائش يتعصب لرأيه يضع الأمور في غير مواضعها، يعلن الحرب ويشعل نارها بحكيم عاقل يقدر الأمور قدرها ويزن بموازين الحكمة ونور اليقين ويستخدم العقل والنقل ويعرض على نفسه تجارب الآخرين وخبراتهم هي أداة مهمة يستحوذ بها الجاحظ على المتلقي، وكذلك التكرار وإن تعددت أشكاله واختلفت أساليبه فهو واضح وذو أثر أسلوبي وقيمة فنية، وأثر عاطفي، هذا الأخير الذي يخاطب الوجدان هو الطريق الممهدة إلى الاقتناع الذي هو ذو طابع عقلي.

البلاغة المستخدمة هنا ليس لقلب الحقيقة أو طمسها والانتصار للنفس والرأي كما هو حجاج المتخاصمين في المحافل والمحاكم والخصومات، ولكنها تميزت هنا

بالدفاع عن فكرة إنسانية لا يتخيل لها معارض إلا هذا الذي أنتجه فكر الجاحظ ليبقيه رغم أهمية حضوره مجهولا في عالم المتلقين. والأسلوب كما قلنا يتسم بقوة النظم وحسن السبك هدفه إظهار الحق ونحر الباطل ودحره واستدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم "ونعم الأنيس لساعة الوحدة ونعم المعرفةُ ببلاد الغربة ونعم القرين والدخِيل ونعم الوزير والنزيل والكتاب وعاءٌ مُلِئَ علماً وَظَرْفٌ حُشِي ظَرْفاً وإناءٌ شُحِن مُزَاحاً وجِدّاً".

لنلاحظ هذه المقابلات الجميلة: أنيس في الوحدة، معرفة في الغربة

والحظ النكرات: وعاء، علماً، ظرف، ظرفاً، مزاحاً، وجداً

وهو هنا وأن كان لا يهمل محاولة التأثير العاطفي على المتلقي مما يجعل نوع حجاجه دعائي إلا أنه لا يهمل جر المتلقي إلى جانب العقل، وكما أن النص بطبيعته الأدبية ذو مطلب جمالي فلا يجب أن ينسى أنه مطلوب للكاتب، ولغاية أن يمتع أساسا بل لا نبالغ إذا قلنا إن الهدف الحقيقي وراء تدوين نصه وتركيبه مع أنه يحمل رسالة ويدافع عن قيمة هو صناعة الفن وتأمين الاستمتاع به. بمجموع هذه الصفات نستطيع أن نقول إن نص الجاحظ هذا ذو طابع حجاجي، له طريقة خاصة ونسق، وإن خفي الحجاج فيه فهو موجود يطرح قضية، ويسوق الأدلة والشواهد ليدافع عنها، يستخدم حججاً عقلية كما يستخدم العاطفة للتأثير، يعطي آراء للآخرين وأمثلة يستهدف من وضعها استدراج الخصم إلى الإذعان و يستدرج القارئ إلى التسليم، فلا يكتفي هكذا أن يكون خطابه إعلامياً إخبارياً، ولكنه يصبح ذا طابع توجيهي يوجه القارئ إلى التأثر ومن ثم الاقتناع بفكرة الكاتب. كما يظهر جلياً كيف هو متأثر والى حد كبير بأسلوب القرآن الكريم وطريقته وهو موضوع يحتاج وقفة أطول وتفحص أعمق لمعرفة نقاط الالتقاء. وهكذا يستميل الجاحظ القارئ فلا يكاد يكمل الموضوع قراءة، حتى يتبنى فكرة الجاحظ ويوافقه.

المصادر والمراجع

- ابن حزم علي بن أحمد الظاهري التقريب لحد المنطق والمدخل إليه، تحقيق إحسان عباس، دار الحياة، بيروت، 1990.
- ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة، دار إحياء التراث العربي، ط 4، بدون تأريخ.
- ابن منظور محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر بيروت، ط أولى، المكتبة الشاملة، الإصدار الثالث.
- أبو حمزة الشامي، ترجمة الأئمة الأربعة، المكتبة الشاملة، الإصدار الثالث.
- أبو حيان النحوي، أثير الدين تفسير البحر المحيط، تحقيق عادل أحمد وآخرين، ط أولى، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993.
- أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي، الأمالي، المكتبة الشاملة، الإصدار الثالث.
- البغدادي عبد القادر بن عمر، خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب، تحقيق عبد السلام هارون مطبعه المدني ونشر مكتبة الخانجي، القاهرة، ط أولى، 1986.
- الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، دار الرشاد الحديثة، بدون تاريخ.
- الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، كتاب الحيوان، شرح يحيى الشامي، دار مكتبة الهلال، 1986.
- الحطّاب، شمس الدين الرعيني، مواهب الجليل على مختصر خليل، تحقيق زكريا عميرات، دار عالم الكتب، طبعة خاصة، 2005.
- الذهبي الحافظ، سير أعلام النبلاء، المكتبة الشاملة، الإصدار الثالث.
- الرازي فخر الدين، التفسير الكبير، مفاتح الغيب، ط أولى، دار الكتب العلمية، 1990.
- الزركلي خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، المكتبة الشاملة، الإصدار الثالث.
- الزمخشري، جار الله أبوالقاسم، أساس البلاغة، دار الفكر، لبنان، 2002.
- ساسين عسّاف، الكتابة الفنية، منشورات جروس برس، طرابلس لبنان.
- السيوطي جلال الدين، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق أبي الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، دون تأريخ.
- الشاطبي، إبراهيم بن موسى، أبو إسحاق، الموافقات في أصول الشريعة، دار ابن عفان، ط أولى، 1997.
- الشيرازي إبراهيم بن علي، كتاب المعونة في الجدل، حققه وقدم له ووضع فهارسه عبد المجيد تركي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 1988.

- الطوفي نجم الدين، علم الجذل في علم الجذل، تحقيق الباحث الألماني قولفهارت هاينريشس، دار النشر فرانز شتاينز بقيسبادن، 1987م.
- عبد الله صولة، الحجاج في القرآن، منشورات كلية الآداب بمنوبة، تونس، 2011.
- المبرد أبو العباس محمد بن يزيد، الكامل في اللغة والأدب، مؤسسة دار المعارف، بيروت.
- المرزوقي أبو علي أحمد بن محمد، شرح ديوان الحماسة، تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون، الطبعة الثانية، 1972.
- محمد أبو زهرة، كتاب الجدل، دار الفكر العربي، 1943.
- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 2000.
- نعيم الأصبهاني، كتاب حلية الأولياء، المكتبة الشاملة، الإصدار الثالث.
- يوسف عمر لعساكر، رسالة ماجستير، الجدل في القرآن خصائصه ودلالاته، جامعة الجزائر، 2004.
- الواحدي أبو الحسن علي بن أحمد، شرح ديوان المتنبي، شركة القدس، القاهرة، دون تأريخ.
- Aiblu, Salem, *L'influence de la doctrine shaféite sur Abu hayyan al-nahwi dans son commentaire al-Bahr almuhit*: http://www.theses.fr/2012LYO20004.
- Charles, René et autres, *La communication orale*, Paris, Nathan, 2015.
- Collectif, *100 fiches de culture générale. Histoire de la pensée*, Paris, Bréal, 4e édition, 2013.
- Oléron, Pierre, *L'argumentation*, Paris, PUF, 3e édition, 1993.
- Plantin, Christian, *L'argumentation*. Paris, Seuil, 1996.